Sadaa Al-qalum Journal
مجلة صدى القلم
مجلة صدي القلم للعلوم الإنسانية والتطبيقية

استعارة الماء في مجموعة (أخيط على مقاس العطر) للشاعرة ابتهال تريتر

عبدالحفيظ محمد خليفة العيساوي
كلية التربية غريان
أستاذ مساعد
Hafed9721@gmail.com

استلام الورقة: 2026-05-18 **قبول الورقة: 2026-05-25** **نشر الورقة: 2026-06-02**

الملخص

تهدف هذه القراءة إلى الكشف عن دور الماء في بناء الاستعارة مفيدة في ذلك من مقولات غاستون باشلار عن الخيال المادي ومن المقولات العرفانية التي ترى أن الاستعارة جزء من عملية الإدراك وليست شيئاً لاحقا، أي أننا ندرك الأشياء استعارياً.

كلمات مفتاحية: الاستعارة، الماء، الشعر.

Abstract

This reading aims to reveal the role of water in constructing the metaphor. It is useful in that from the sayings of Gaston Bachelard about the materialistic imagination and from the mystical sayings that see that the metaphor is part of the perception process and not something later, that is, we perceive things metaphorically.

Keywords: Metaphor. Water. The poetry

مقدمة:

تتغيّا هاته القراءة استثمار المقولات الظاهراتية والعرفانية في الآن ذاته لمقاربة الحضور اللافت للماء في نصوص هذه المجموعة، فهي تعاين الماء في مستويي المادة والإدراك، مفيدة من أطروحات (غاستون باشلار) عن الخيال المادي، ومن التصورات العرفانية عن الاستعارة بوصفها جزءاً من عملية الإدراك، أي أنّ هذه الدراسة تقتفي حوافر الماء كونه جزءاً من نسق الذات الشاعرة التصوري عن الأشياء، ومن ثم فهو يبتني عبر حضوره المهيمن استعارات متعدّدة في هذا الخطاب الشعري، وهي في ذلك تربط بين مسقط الرأس والخيال المادي المهيمن، أي بين الذات الشاعرة ومادة الأحلام التي تشيّدها شعريّاً، ومن ثمّ تقرأ الماء في هاته المجموعة بوصفه استعارة كلية تبتني على نحو ظاهر المتخيّل الشعري لأغلب نصوص هذه المجموعة، لكنّ هاته القراءة تكتفي بدراسة نص واحد هو (قيثارة تعترف) تقارب من خلاله فروضها المعرفية بأداء إجرائي يطمح إلى تجلية هذه العلاقة بين الذات الكاتبة ومادة أحلامها

الشـعرية، وهـذه القـراءة إذ تسـعى إلى ذلـك تقـارب موضـوعها متبعـة منهجـاً موضـوعاتياً يـولى اهتمامـه بالمـاء بوصـفه الثيمة الأساسية، ويبحث في تمثيلات الماء استعارياً.

1_ عتبة:

يمثّـل مسـقط الـرأس، مـن وجهـة نظـر علـم نفـس الخيـال المـادي، واحـداً مـن أكثـر العوامـل التي تهـب تصـوّراتنا عـن الأشـياء سـمتها الأساسـيّة، فمسـقط الـرأس مـادة أكثـر مـن كونـه امتـداداً، فيـه نعطـي أحلامنـا مادتهـا، ومـن خلالـه يكتسـب حلمنـا مادتـه الحقيقيـة[i]، وهـذا يشـي بالعلاقـة بـين الأحـلام ومادتهـا، ويفسّـر هيمنـة بعـض المـواد كالمـاء أو النـار أو الهـواء أو التراب على إدراك الـذوات للأشـياء عبر منحهـا بعـداً اسـتعاريّاً، بحيـث تمـتح الاسـتعارات مـن سـمات تلـك المـواد وخصوصـيتها فنكـون إزاء اسـتعارات مائيـة أو ناريـة أو غيرهمـا، أي أنّنـا نكـون أمـام صـور مباشـرة للمـادة وهـو مـا يسـميه غاستون باشلار الخيال المادي.

يتبـدّى ممـا سـبق أن اسـتعارة المـاء مـا هـي إلا واحـدة مـن عـدة اسـتعارات ممكنـة للمـادة، هاتـه الاسـتعارة تسـتدعي في خفـاء مسـقط الـرأس وأحـلام الطفولـة التي هـي أحـلام ماديـة بالضـرورة[ii]، وبمـا أن الكتابـة حلـم نهـاري، تشـيّده الـذات الكاتبـة مـن الكلمـات وبهـا، فـإنّ هاتـه القـراءة تلـتمس أسـباب وجودهـا وهي ترحّـل أدوات اشـتغالها مـن حلـم الطفولـة إلى أحـلام الشـاعر، زادهـا في ذلـك المقـولات النظريـة التي تـربط بـين حلـم الشـاعر وطفولتـه إلى الحـدّ الـذي قـد يبلغ فيه حلم الشاعر المبدع أن يعثر على صور جسده الأولى[iii].

تنطـوي كـلّ شـعرية علـى مكوّنـات ذات جـوهري مـادي[iv]، هـذا الجـوهر المـادي هـو الـذي يهـب الاسـتعارات الشـعرية تمايزهـا واختلافهـا، ويكسـبها سـمات خاصـة مسـتمدة مـن طبيعـة المـادة نفسـها، مـن هنـا يمكـن القـول: إنّ الخيـال المادي للماء يمثّل نموذجاً خاصاً من الخيال [v] يختلف عن الخيال المادي للعناصر الأخرى.

2_ سيرورة الشعر والماء:

يبـدو المـاء ي فـاعلًا في صـيرورة نـص (قيثـارة تعتـرف) عبر ابتنـاء متخيّلـه الشـعري، فتغـدو الكتابـة بـذلك وكأنهـا صـيرورة مائيـة تسـتدعي المـاء في بعـده المـادي، وتجسّـر على نحـو لافـت علاقـة خاصـة بـين المـاء والحبر والنطـف، وتُضـحي الكتابة بذلك وكأنها نوع من الجدف في صفحة الماء وموجة الصحف معاً، حيث نقرأ في المقطع الأول:

قيثارة تعترف[vi]

في صفحةِ الماء

أو في موجةِ الصحفِ

تبتلّ أحرفنا من رهبةِ الألفِ...!

ونستعيدُ رماد الوقتِ

ليس لنا

إلا العبير وما للوردِ من شغفِ..

يهشّنا الرملُ..

والصحراء تكنسنا

فتستريحُ غيومُ الحزنِ في السعفِ

لمّا استويتُ

على جوديّ أخيلتي..

نُوديتُ..

يا ربّة الأحزانِ لا تقفي...!

سوّيتُ من طينة الأفهامِ آلهةً

أكلتها..

حينما زادت على كتفي

رقّعتُ جبّتها

لكنّ أسئلةً.. تعودُ

تثقبُ ما أخفت من التلفِ

لا تسبحوا فوق نهري

صار مكتنزاً باللا كلامِ

وباللا ماءِ والأسفِ..!

تتجاوز العلاقة بين (صفحة الماء) و(موجة الصحف) مجرّد التلاعب اللفظي الذي يمكن إدراجه تحت مباحث بلاغية معروفة، ذلك أن هاته الاستعارة المائية تمزج الماء بالحبر عبر ترحيله إلى الورق، وهو ما يتيح للقارئ أن يعاين في هذه الاستعارة تماثل البدايات بين سيرة الكون والإنسان متجسّداً في التحول من الكتابة بالماء إلى الكتابة بالحبر، هذا الارتباط بين الماء والبدايات يبدو وثيقاً في ضوء المقولات التي ترى أنّ الكون في حالة دائمة من السيولة والحركة، إما مبتدئًا بالماء أو منتهيًا إليه [vii]، ويظهر أيضاً في ابتلال الأحرف من رهبة الألف الذي يشير بجلاء إلى البدايات، وفي السياق ذاته يمكن القول: إذا كان الماء يمثّل المرآة الأولى التي أبصر فيها الإنسان وجهه[viii] فإنّ الحبر ماء ثان مكّن الإنسان من أن يعيد رسم وجهه على الورق.

يتجسّد فعل الكتابة في السيرورة المائية التي تظلّ قادرة على خلق استعاراتها حتى عندما يغيب الماء (يهشّنا الرملُ، والصحراء تكنسنا)، ذلك أنها تفلح في استعادته شعريّاً (فتستريحُ غيومُ الحزنِ في السعفِ)، ومن ثمّ تتابع الاستعارات التي تضعنا في صلب هذه العلاقة بين الكتابة والسيرورة المائية، حيث تفيد الذات الشاعرة من النص الغائب في ابتناء استعارة تضعنا مباشرة أمام صورة الطوفان والسفينة (لمّا استويتُ على جوديّ أخيلتي)، ورغم ما يوحي به الاستواء على الجودي من انحسار للماء فإنّ رحلة الذات الكاتبة التي تماثل رحلة السفينة لم تكن إلا سيرورة

مائيـة، هـذا مـا يتأكّـد في آخـر المقطـع حـين نطـالع تمـاثلاً آخـر بـين غيـاب المـاء والكـلام، وهنـا أيضـاً يشـيّد المـاء اسـتعارته مسـتدعياً مـن خـلال النهـر صـورة المـاء الجـاري الـذي يحسّـد رمزيـاً الـزمن في بعـده الأفقـي المنسـاب، فارتحـال المـاء يشـي بالحركـة الأفقيّـة للـزمن، ولهـذا تُمثّـل الميـاه الجاريـة، عنـد بعضـهم، دعـوة إلى رحلـة دون عـودة؛ إذ إنّ الينـابيع لا تعـود مطلقًا إلى منابعها، فهي إذن صورة القدر[ix].

يمثّل غياب الماء نقطة تحوّل في المتخيّل الشعري لهذا النص حيث نقرأ في المقطع الثاني[x]:

أنا

العنادُ،

وقصري شِيد من وجعٍ

أنا..

الصراخُ الذي في هدأة الغرفِ!

أنا

التضادُ..

فلا تأخذ عواهنه

وها.. اعترفتُ، فيا قيثارتي اعترفي..

لا ضوء

يسلكُ دربي..

منذ أن رحلتْ عنّي خطاك،

ولم أفتحكِ يا شُرفي!

تعدو الغرابةُ..

في أرجاء أوردتي

وتستحمّ بماء الدهشة الكلفِ

تعدو الغرابة..

في أرجاء أوردتي

ويثبت النبضُ ما في الشهقتين نُفي

مجبولة

وعلى أعتابك

اشتعل الظنُّ

الذي

من عظيمات اليقينِ شُفي

أسيفة..

لحظات الصبر أطرحها

وكلّما جزت قالت لي الدروب قفي

أرقّ..

حتى أربّي خطوهنّ معي..

فيجتمعنَ على صنو ومختلفِ!

من قال للطلّ:

غب عن أرضنا؟

ولنا في البردتين سماء غير مكتشفِ..!

من قال:

إنّ على الأقفالِ سوسنةً

تخافُ من سطوة المفتاحِ

والكشفِ؟!

من قال:

إنّك خيطٌ أستحلّ به صومي

و أفطرُفي بو ابة الشغفِ..

وكيف أعقدُ حبلاً للزمانِ؟

وبي عقمُ المسافاتِ

تخشى صحوة النُّطفِ

يحاولُ الغيمُ

ستر الأرضِ مُذ تُركتْ عندي

فقلتُ لها في ثوبي ائتلفي..!

يمثّل انحسار الماء توقّف الزمن وتعطّل الكلام، ومن ثمّ تتحوّل الذات إلى حالة من توهّم الكلام (أنا الصراخ الذي في هدأة الغرف)، وتغدو الكتابة نوعاً من مناشدة الكلام الغائب أن يحضر، يتجلّى ذلك رمزياً في مخاطبة قيثارة الذات وشرفها، وفي سؤال الطلّ الذي تعذّرت بغيابه محاولات الكشف، وهنا يلحظ القارئ أيضاً غنائية صاعدة تشيّدها الذات عبر تكرار الأنا وتصوير ما هو جوّاني، وهو ما يشكّل حركة إلى الداخل، وفي سياق هذا الارتحال الداخلي يغيب الماء إلا في استعارة واحدة (وتستحمّ بماء الدهشة الكلفِ)، لكنّ هذا الغياب آني؛ إذ إنه

يسجّل حضوره في صورة تبذر معنى الإخصاب الماثل في النطف التي توحي بولادة جديدة مرتهنة بصحوتها، كما يشهد القارئ توحّد الإنسان والأرض من جديد، وهو ما يجعلنا نتمثّل أمومة الأرض، ونعاين في السيرورة المائية تماثل البدايات والنهايات بين الكون والنص، فرحلة الذات الكاتبة نحو القول الشعري يؤثّثها الماء باستعاراته التي تهيمن على تصورات الذات عن الأشياء، هذا ما تبدّى في التحوّل من الماء إلى الحبر ومن ثمّ إلى النطف، وهو ما تجلّى أيضاً في استعارة الماء للكلام وفي تمثّل الكتابة رحلة مائية تستدعي السفينة والطوفان إلى أن تستقر على جودي الأخيلة.

خاتمة:

شكّل الماء الجوهر المادي المهيمن لشعرية هذا النص الذي تمحور حول سؤال الكتابة، وجسّد إبحار الذات الكاتبة إلى عوالمها الشعرية، وهي رحلة تجلّت في استعارة الماء للقول الشعري، وتحت سلطة هذه الاستعارة الكبرى تفتّقت استعارات أخرى صغرى تتخذ من الماء مادتها الأساسية، كل تلك الاستعارات كشفت عن دور الماء في بناء الذات الكاتبة أحلامها النهارية، فهو يتحّكم بشكل لافت في إدراكها للأشياء وفي رؤاها الشعرية أيضاً.

الهوامش

[i] – انظر، باشلار، غاستون، **الماء والأحلام**: دراسة عن الخيال المادي، تر: على نجيب إبراهيم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007،، ص:23.

[ii] – انظر، المرجع نفسه، ص:24.

[iii] – انظر، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[iv] – انظر، المرجع نفسه، ص:16.

[v] – انظر، المرجع نفسه، ص:19.

[vi] – تريتر، ابتهال محمد، **أخيط على مقاس العطر**، تر: دار الأجنحة للطباعة والنشر والتوزيع، الخرطوم، ط1، 2022م، ص:51، 52.

[vii] – أنس الوجود، ثناء، **رمز الماء في الأدب الجاهليّ**، مكتبة الناشر، د. ط، د. ت، ص:12.

[viii] – انظر، دوران، جيلبير، **الأنثربولوجيا، رموزها، أساطيرها، أنساقها**، تر:مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1991، ص:74.

[ix] – انظر، باشلار، غاستون، **الماء والأحلام**، مرجع سابق، ص:71.

[x] – تريتر، ابتهال محمد، **أخيط على مقاس العطر**، مصدر سابق، ص:53– 56.